مسئولية المجتمع

لكل مجتمع محاسنه ومزاياه كما أن له مساوئه وسقطاته، وترى هذه الطبائع والعادات المتباينة ممثلة أوضح التمثيل فى بيئته وكامنة فى شخصية أفراده وأسره ، وهؤلاء الأفراد يستطيعون أن يخلقوا لهم مجتمعاً إما أن يكون قويا سعيداً ، وإما أن يكون ضعيفا شقيا . وهذا بطبيعة الحال يتوقف على مقدار ما يبذلونه من التضحيات وما يستسيغونه من الصبر على تحمل المكاره ، ذلك أن المجتمع يتنازعه عاملان أحدهما داخلى والآخر خارجى ولكل من هذين العاملين خطورتهما وأثرهما البعيد فى قيام الأمم أو انهيارها ، والعامل الداخلى مبعثه أفراد المجتمع أنفسهم ، وأسوأ ما فى هذا العامل الفوارق بين الطبقات ، ذلك أن المجتمع يتكون من طبقات ثلاث إحداها غنية وأخرى متوسطة الحال ، وثالثة فقيرة ، ولا نعنى هنا بالفوارق من حيث الناحية المادية فهذه سنة الحياة . ولا اعتراض عليها ، ولكن بيت القصيد فى هذا القول الفوارق من ناحية الطبائع البشرية التى تترتب على وجود هذه الماديات فى حوزة بعض الناس والتى يستطيع كل إنسان تجنبها والقضاء عليها لأن مبعث هذه الطبائع المستهجنة الشعور « بالنفخة الكذابة » ويخيل إلى أن أصحاب هذه النفخة لم يدركوا بعد من أين جاءوا وإلى أين يذهبون وماذا عسى أن يكونوا فى عالم المجهول ، ولو أنهم أدركوا لما وجدوا محلا للكبرياء حيث تفرض الحياة علينا إرادتها .

ولن يستفيد المجتمع من أفراده إلا إذا شعر كل واحد منهم بالمسئولية وأدى واجبه على الوجه الصحيح، وليست هذه المسئولية وقفا على أناس دون آخرين بل يشترك فيها جميع أفراد الشعب كبيرهم وصغيرهم .

فأصحاب السلطة مسئولون عن رعاياهم من حيث كفالة المعيشة والحريات والمساواة فى الحقوق والواجبات وصون الأمن واستثمار مرافق البلاد لخيرها وصالحها ،ووضع حد للجشع والمطامع الشخصية ، والاستئناس بأولى الخبرة والمواهب من المواطنين وغيرهم .

والآباء مسئولون عن أبنائهم ، والأبناء صورة صادقة لآبائهم ومربيهم . فإذا ما نشأوا نشأة صالحة سعد بهم مجتمعهم الأصغر وهو « المنزل » ومن ثم مجتمعهم الأكبر وهو « المدينة » والعكس على نقيض ذلك . والأساتذة مسئولون عن تلاميذهم فى المدرسة فليس المهم حشو رؤوسهم بالدروس الطويلة العريضة ، وإنما عليهم أن يكرسوا جهدهم فى صقل عقليتهم ، وتكوين شخصيتهم ، وتهذيب غرائزهم ، وشحذ هممهم ، وإعدادهم للمستقبل . ثم يأتى دور الشباب وهم العنصر الجوهرى فى كيان المجتمع ونصف المسئولية ملقاة على عاتقهم وقد يجدون من الصعب عليهم تحملها خصوصا فى طريق تحف به المصاعب والمتاعب والآلام ولكنهم متى أدركوا أن هذا الطريق الذى لابد من اجتيازه هو طريق المجد الذى ينشدونه ، هانت عليهم كل التضحيات التى يبذلونها فى سبيله .

وبقى قادة الرأى ، وهم أولو النفوذ الدينى والفكرى والسياسى ، والمسئولية الملقاة على كاهلهم أخطر مما يتصور، ذلك لأنهم بمثابة « مركز القيادة » لأمتهم ، فإن أحسنوا التدبير وصلوا بها إلى الرقى والتقدم، وإن أساءوا التصرف قادوها إلى الانحطاط والتدهور ، وأهم ما يجب أن يتصفوا به « النزاهة » .

فأولو النفوذ الدينى أصحاب رسالة سامية دونها رسالة غيرهم والمسئولية التى هم مطالبون بها لا تقل أهمية عن أولى النفوذ السياسى ،إذ لا فرق بينهم سوى أنهم رجال يغلب عليهم الطابع الروحى والسياسيون يغلب عليهم الطابع المادى.

والمهمة الموكولة إلى أصحاب النفوذ الفكرى ليس لها مكان أو زمان وإنما تتلون وتتأثر بالظروف القائمة ، وقد يجدون أن من العسير عليهم أن يوفقوا بين رغباتهم ورغبات القراء، لذلك نرى أن معظم القراء ينظرون إليهم نظرة يشوبها نوع من الريبة والشك ، وكثيراً ما توجد أسباب تخرج عن إرادة المفكر ولولاها لما توانا لحظة

فى تحطيم القيود التى تشل عليه تعبيره ، وليس معنى هذا أنه لا يجوز للقارىء أن يطالب الكاتب بمعالجة نوع خاص من الموضوعات وأن يبدى فيها آراء صريحة بل له الحق فى ذلك على أن يقدر الظروف والملابسات أولا . ومن واجب الكاتب أن يجيب رغبات قرائه فى حدود المعقول والمستطاع ، وإجابة طلبات القراء تتوقف إلى حد بعيد على لباقة الكاتب وحسن تصرفه . ويجب أن يدرك أولو النفوذ الفكرى أن ما من نهضة قامت فى أمة ما ، إلا وكان لهم السبق والفضل فيها ، وهذا يدلنا على فداحة الثمن الذى يبذلونه

وأولو النفوذ السياسى يدور فى فلكهم أو هم يدورون فى فلك الطبقة الأرستقراطية الرأسمالية وهذه الطبقة يعز عليها أن تشارك مواطنيها آمالهم وآلامهم ، وقد يستعصى عليها الدفاع عن حقوقهم ، فهى صاحبة الشأن ولها الكلمة المسموعة ، ولها المقام المرموق ، ولكنها مع الأسف الشديد كثيراً ما تستغل مركزها الاجتماعى فى حدود مصالحها الخاصة .

وهذه الطبقة هى أقدر الطبقات على الإصلاح لو عملت له . والمرء حينما يضحى بالقليل من راحته ومن مصالحه الشخصية فى سبيل بلاده وهى لا تكلفه شيئاً كثيراً يقدم أجل الخدمات لمجتمعه لأنه بهذا العمل العظيم يدفع عنه كثيراً من الآفات والويلات التى إذا حلت به تذوق مع غيره مرارتها ، والأفراد المستضعفون الذين يدافع عن حقوقهم ويصون لهم كرامتهم ويشعرهم بإنسانيتهم ، يؤلفون السواد الأعظم من مجتمعه وجلهم من الطبقة العاملة الفقيرة وهذه الطبقة دائما أبداً مهضومة الحقوق ، مهانة الكرامة يؤخذ منها كل غال وثمين ، ولا تعطى إلا كل مرتخص وحقير .

ومتى شعر أفراد هذه الطبقة بأنهم منبوذون لا يقيم لهم مواطنوهم وزناً ولا يحسبون لهم حسابا ، انكمشوا هم بدورهم متأثرين بدافع خفى لا يلبث هذا الدافع أن يثير فى نفوس بعضهم الجانب الشاذ من غرائزهم فيواجه هذا الجانب صراعا عنيفا فى الملاءمة بينه وبين تقاليد المجتمع الذى أبى أن يجعلهم على قدم المساواة مع مواطنيهم ، وهنا يحتدم فيهم الصراع النفسى فيظلون يوازنون ويفاضلون متأثرين بعقليتهم المضطربة ونفوسهم المتذمرة ويجدون آخر الأمر أنهم لا يستطيعون التوفيق بين هذا الجزء الشاذ من غرائزهم وبين مجتمعهم الظالم ولا شك أن التفكير سينتهى بهم فى هذه الحالة القاسية إلى التحرر من كل شىء لأن الاعتداد بالشخصية من لوازم الإنسان المفكر الحر .

ومتى اضطر اضطراراً إلى التمادى فى الانسياق وراء هذا الجانب الشاذ من غريزته الذى يتأثر بالعاطفة أكثر مما يتأثر بالعقل والمنطق فإنه لن يجد له متسعاً للعمل إلا فى الظلام والخفاء .

وفى هذه المرحلة الارتجالية المتذبذبة تبدأ الدسائس تعمل عملها المخرب ، والوشايات تفعل فعلها الهدام ، ولا يستفيد من هذه التفرقة سوى الأجنبى حيث يجد الأبواب مفتوحة على مصراعيها ليدخل منها من غير مشقة ، ليسعد بخيرات البلاد ونعيمها .

ومجتمع هذه حالته لابد وأن يكون مصيره للانهيار فالزوال ومن ثم لن يجد من يأسف عليه أو يرثى لحاله لأنه أهل لهذا المصير المظلم والنهاية المحزنة .

وعلى عكس هذا ، المجتمع الحر القوى السعيد الذى لا تنقص أفراده الشجاعة الأدبية ولا يفتقرون إلى الضمائر الحية والنفوس الأبية ، أفراد يدركون المسئولية تمام الإدراك ، ويميزون بين الحق والباطل ، والحرية والعبودية ويتعاونون مع جميع مواطنيهم فى توجيه مجتمعهم توجيهاً يتسم بالخير والفضيلة والمصلحة المشتركة . ويقضون على جميع التقاليد التى تتنافى مع الصفات الانسانية النبيلة ، والعادات التى تتعارض مع الطبائع البشرية الحميدة ، فينبذون الفوارق ويتقاسمون حلاوة الأفراح ومرارة الأحزان ، رائدهم فيما يعملون وجه العدالة والاخاء والمساواة .

فمسئولية المجتمع ضريبة واجبة ، إن لم يؤدها كل فرد على الوجه الأكمل الصحيح تعرض المجتمع للإفلاس المادى والأدبى .

يوسف محمد الشايجى